لن نفترق

نشوء الحركة السياسية في ارتريا

1941 - 1950

تأليف: الم سقد تسفاي

ترجمة: سعيد عبد الحي

صدر هذا الكتاب في عام 2007 في القاهرة بالتعاون بين المركز الاعلى للثقافة المصري والمكتب الثقافي لسفارة دولة ارتريا بجمهورية مصر العربية. يقع الكتاب في 654 صفحة من الحجم الكبير موزعة في عشرين فصلا.

هذا الكتاب [وهو الجزء الاول من ثلاثية الباحث الم سقد] يعتبر مساهمة قيمة في توثيق مرحلة حرجة ودقيقة من تاريخ الشعب الارتري، ولذا فهو جدير بقراءة نقدية معمقة، ونأمل القيام بذلك في وقت لاحق، وحاليا سنكتفي فقط بعرض مقدمة الكتاب المفصلة كما وردت.

" ثمة سبب مهم يجعل من التاريخ الارتري في الاربعينيات ـ الذي قاد الى ربط

ارتريا فيدراليا بأثيوبيا ـ تاريخا شائكا ومعقدا للغاية. وهذا السبب يتلخص في ان اتخاذ الامم المتحدة هذا القرار الفيدرالي المعروف بالقرار 390ـ 5 كان بعيدا عن أي صلة بالنضالات السياسية التي كان يخوضها الشعب الارتري ولا يعكس رغباته وانه قد اتخذ بناء على مصالح الدول العظمى واستراتيجياتها.

هذا الواقع المتناقض الذي كان يسير في خطين متعارضين لا يلتقيان يمثل روايتين تاريخيتين مختلفتين كليا بعضهما عن بعض. وقد حاولنا في هذا الكتاب ان نسرد الورايتين المتوازيتين زمنيا، أي نضالات شعبنا الارتري من ناحية، والتحركات الدولية لتقرير مصير الشعب الارتري من الناحية الاخرى.

ولكن في محاولتنا هذه صادفتنا مشكلة، فبينما كان يوجد توثيق تام للاتفاقيات والمؤامرات الدولية ـ التي كانت خاتمتها صدور القرار الفيدرالي ـ من خلال الوثائق والتقارير التي كانت تعدها مفوضيات الدول العظمى الاربع والامم المتحدة ومؤلفات المؤرخين المسئولين من امثال جي.كيه. ايه. تريفاسكس وبعثاتهم، فإن النضال الذي كان يخوضه الشعب الارتري واحزابه في مؤازرة تلك المسيرة كان يفتقر الى هذه الميزة. وذلك لأن وثائق هذه الاحزاب كانت قد ضاعت، اللهم الا ما كان متوفرا من صحف تلك الفترة وبعض الوثائق لدى بعض الافراد والمقابلات التي اجريت مع الشيخ ابراهيم سلطان والسيد ولد آب ولد ماريام. وبعض الوثائق والذكريات المتناثرة هنا وهناك. لكل ذلك كان من المحتم الاعتماد على صحف تلك الفترة وذكريات اعدد قليلة من الناس الذين عاصروا تلك الاحداث لتكوين صورة دقيقة عن نهج تفكير المواطنين الارتريين ورغباتهم ونشاطاتهم في تلك الفترة. لكل ذلك لا يمكن اعتبار هذا الكتاب خاليا من العيوب والنواقص أو غير قابل للنقد والملاحظات، فهو مجرد بداية لأي دراسة أعمق وأدق.

التاريخ الارتري ظل يكتب حتى الآن من خلال الاجانب أو بناء على ما كتبه الاجانب حاليا. واليوم نحن نحاول ان نكتب التاريخ الارتري استنادا الى ما كتبه وقام به هؤلاء الاجانب ، ومقارنة مع ذلك بما يقوله الارتريون للوصول الى الرواية التاريخية الحقيقية لمسيرة الشعب الارتري في تلك الفترة، ولهذا سيكون من الطبيعي ان نجد في هذا الكتاب بعض الفجوات أو بعض النقاط والحوادث المثيرة للشك والتي

تجعل من الصعب ان نجد قرائن تاريخية ملموسة تقودنا الى تفسير نهائي وحاسم للأحداث، وقد عملنا في هذا الكتاب على الاشارة الى هذه المسألة كلما كان ذلك ضروريا.

كتابة التاريخ ليست مجرد سرد تقريري لأحداث الماضي، وانما تتضمن أيضا توضيحا وتفسيرا لمدلول الاحداث. وبما انه كذلك، فإنه من الحتمي ان يتأثر التاريخ بفكر من يفسره ويكتبه وفلسفته. وجيلنا هو الجيل الذي امضى معظم سنوات عمره في النضال وحقق الاستقلال. ولهذا فان التاريخ الذي يعرفه هذا الجيل والذي يريد ان ينقله الى الاجيال القادمة هو تاريخ ذلك النهج الذي ظل يحبو لقرون عديدة منذ الازل ويتخطى في كل مرحلة جبروت الاخرين وهيمنتهم، وما يضعونه من عراقيل حتى اكتسب القوة والصلابة اللتين مكنتاه ـ في ـ التحليل الاخير ـ من تحقيق الاستقلال، لكن هذا لا يعني انه لم يكن داخل مسيرة شعبنا نهج آخر وبخاصة خلال الفترة التي امتدت من الاربعينيات وحتى تحيق الاستقلال، هو النهج الذي لا يقود ولا يريد الاستقلال لشعبنا ولذي كان قد ظهر في الاربعينيات حيث كان جزء لا يستهان به من شعبنا يرغب ويطالب بالانضمام الى اثيوبيا، كما كان هناك قسم آخر يرغب في تقسيم ارتريا بين اثيوبيا والسودان، كما كان هناك طرف يناضل من اجل الانضمام المشروط مع اثيوبيا وان تكون حقوق الارتريين مصونة ضمن هذا الانضمام. الى جانب كل هؤلاء كان هناك ايضا من يطالبون بعودة الايطاليين تحت حجة الوصاية...الخ. كل هذا جزء من تاريخنا وارثنا. ومن الخطأ ان نحاول طمس تاريخ النهج الذي لم ينتصر من مسيرة تاريخنا، وننقل الى الاجيال القادمة فقط تاريخ النضال من أجل الاستقلال، فجوهر هوية أي شعب هو تاريخه.

وبما ان التاريخ هو مجموعة تجارب مختلفة، فان مضمونه ومساره معقدان وشائكان، وهو يتضمن زوايا كثيرة معتمة يصعب فهمها واستيعابها عند بحثها ودراستها، فحتى تاريخ مسيرة الاستقلال يتضمن زوايا معتمة ومشوشة، بل ان بعضها يستدعي الاستنكار ويدعو للقلق، ناهيك عن تاريخ معسكر دعاة الانضمام والتقسيم.

نخلص من هذا الى كتابة التاريخ لا تأتي بشكل انتقائي ولا بوضع فواصل بارزة بين

كل ما هو جميل وما هو قبيح، وعلى نحو يفضي الى ابراز الجانب الجميل واخفاء الوجه القبيح من احداث التاريخ. إذ ان التاريخ محصلة جامعة لكل الاحداث ، وعلى الباحث التاريخي ان يتعامل مع القرائن والشواهد المتوفرة لديه كما هي من دون ان يضع أي اعتبار لعواطفه ومشاعره، وجيلينا هذا الذي حقق الاستقلال سيرتكب جرما كبيرا إن حاول ان يدين أو يحكم على الاجيال السابقة، بحجة انه هو الجيل الذي حقق الاستقلال، فالتعامل مع تاريخ الاربعينيات على سبيل المثل ينبغي من النظرة الموضوعية التي تتمشى مع تلك الفترة، لا ان تحاكم وفق معطيات الحاضر الراهن. إذ علينا ان ندرك بداية ما مستوى الوعي السياسي لشعبنا في تلك الفترة، وهل كان شعبنا يملك الامكانيات والخبرة اللازمة للعمل بشكل مؤطر؟ وكيف تأثر شعبنا بالاهتمام الدولي المفاجئ والمؤامرات الدولية بشأن تقرير مصيره؟ إذا وضعنا كل هذه الحقائق في الاعتبار، فإنه سيكون من الظلم ان ننتظر أو نتوقع من الشعب الارتري أن يتصرف فوق طاقته.

لكن هذا لا يعني انه ليس من حق الاجيال اللاحقة ان تحاسب من اجرموا والحقوا الضرر بمصلحة الشعب والوطن في سبيل تحقيق مصالح فردية أو فئوية ضيقة، وهذا يتطلب ان يتم التمييز بين من كان يتعمد الافعال الدنيئة بكل وعي وادراك، ومن كان يفعل ذلك بسبب الجهل ونقص الوعي.

ونحن لو تأملنا تاريخ الاربعينيات بعين التفهم والتعاطف، فإننا يمكن ان نعده بداية التاريخ السياسي الحديث لإرتريا، وانه لذلك كان يفتقر الى الخبرة والتجربة. وبما ان على كل جيل ان يتعلم من تجارب الاجيال السابقة له، فإن الجيل التالي ومن اتى بعده من اجيال وحتى الجيل الحالي ينبغي ان لا يحصل على امتياز التعاطف والتسامح الذي يمكن ان نمحضه لأجيال تلك الفترة هذا الكتاب يجب ان يقرأ من زاوية هذه القضايا، ومن زاوية الواقع والتحفظات المطروحة بشأنه. وقد قمنا في هذا الكتاب بطرح مفصل لممارسات الكثير من شخصيات تلك الفترة ونهجها سواء الايجابي منها او السلبي. وهي في مجملها تعكس نهج الاربعينيات وممارساتها. بعض هذه الشخصيات سنجدها قد اتخذت مواقف مغايرة في المراحل اللاحقة من تاريخ تلك الفترة، حيث نجد على سبيل المثال ان من كان يدعو الى الاستقلال يتخذ

موقفا مناصرا لأثيوبيا، وان الندم كان ينتاب من يدعو للانضمام الى اثيوبيا، بل ان هناك الكثير من اعضاء عصابات الشفتا الذين اصبحوا لاحقا اعداء لأثيوبيا، وكل هذا حدث في مراحل لاحقة متأخرة ، لا في فترة الاربعينيات، ولهذا لا يمكن تناول التاريخ اللاحق لفرد ما بالتشويه أو التزيين وفقا لمواقفه في الاربعينيات. وحتى تاريخ الافراد في الاربعينيات لا ينبغي المغالاة في تسطيره الى الحد الذي يتجاوز ما كان عليه فعلا. كما ينبغي عدم التعامل مع ذلك التاريخ خارج نطاق الاسباب التي دفعته الى ان يأخذ ذلك المنحى. ونخلص من ذلك الى ان كتابة التاريخ ليست منبرا تقوم فيه الاجيال اللاحقة بمحاسبة الاجيال السابقة، وحول ذلك يقوم العالم التاريخي ايه. اتش. كا ما يلي: " ...ان الاسباب التي تدفع الانسان المعاصر للنظر الى الخلف ودراسة المنابع التي خرج منها فجره، هي رغبته في ان يستعين ببصيص ضوء الماضي، لإستشفاف الأفاق المبهمة لمستقبله القادم."

التاريخ مدرسة ومرآة في الوقت نفسه. فإن اراد شعب ما ان يتعرف على نفسه ويبحث ويدرس سلوكياته ويميز بين ما هو جميل وما هو قبيح منها وان يتعلم من اخطائه السابقة، فإن كل ذلك سيجده في صفحات ماضيه التاريخي، وكما قال المؤرخ كار فإن الناس ونظرا الى عجزهم عن التنبؤ بمستقبلهم، فإنهم يبحثون في ماضيهم عن ذلك يساعدهم في القاء الضوء على مستقبلهم، وبعبارة اخرى فإن أي جيل معاصر يهتم بتاريخه، فإنما لحرصه على وجوده واستمراريته.

والشعب الارتري يهتم بتاريخه أكثر من أي شعب آخر، نظرا لتعرضه لحقب متتالية من الاستعمار ولمحاولات استعمارية استهدفت وجوده، ولهذا حري بنا ان نصف نضالنا من اجل الاستقلال بأنه نضال من اجل التاريخ. ولا يستبعد ان تكون المعركة والجدال اللذان خاضهما الارتريون ضد اثيوبيا بشأن التاريخ والهوية تحتلان المرتبة الاولى في التاريخ المعاصر للبشرية. ويرجع ذلك الى ان الاحتلال الاثيوبي لارتريا لم يكن احتلالا اوروبيا مكشوفا ضد بلد افريقي كما كان الحال عندما احتل الايطاليون ارتريا، فقد عمد المستعمرون الاثيوبيون الى تزوير التاريخ الارتري وتأليف الكثير من الاساطير حوله وغيروا الموضوع الى قضية هوية مشتركة، ومن خلالها نفذوا مخطط احتلالهم. ومما زاد الطين بلة، ان القوى العظمى تبنت التفسير

الاثيوبي لتاريخ البلدين، فأزداد الامر تعقيدا وظل الشعب الارتري بسبب ذلك عرضة للعزلة، وطال أمد معاناته لفترة طويلة أكثر مما ينبغي.

وبالطبع لا يرجع سبب اطالة معاناة الشعب الارتري الى العوامل الخارجية فقط‘ فالارتريون لم يسعوا الى تعريف العالم بتاريخهم وهويتهم، وانما احتفظوا به داخل سرائرهم، لأنهم لم يعتادوا الكتابة كثقافة، ولم نعمل نحن في القوت الحاضر على تطوير الكتابة وتشجيعها كما ينبغي، ولهذا فإن تاريخنا المفصل لم ولا يزال غير معروف بالنسبة الى الآخرين.

لقد تعلم الشعب الارتري بعد تجارب مريرة ان تاريخه لن يعترف به أو يسطره أي طرف آخر ما لم يدونه بنفسه، سواء كتابة أو شفاهة. فالغريب ومهما بلغت درجة محبته وتعاطفه معك، فلا يمكن ان ينظر اليك أو يقيمك خارج اطار ثقافته وتقاليده. أما ما عدا ذلك فانه يصبح من الطبيعي ان يكتب عنك أي طرف انطلاقا من مصالحه الاستعمارية، كما فعل الايطاليون والبريطانيون والاثيوبيون مع التاريخ الارتري.

التاريخ الارتري في الاربعينيات لعب دورا كبيرا وحاسما في تحديد هويتنا، لأن تلك الفترة شهدت جدلا ومساومة شديدة على الهوية. وقد اثيرت في تلك السنوات العشر كل القضايا المتعلقة بالهوية الوطنية، ولكن قيادات العمل السياسي الارتري في ذلك الوقت، وليس ابناء الشعب الارتري هم من اختلفوا حول تفسير الهوية ومدلولها واسلوب تحقيق الاستقلال. ولهذا لا جدال في ان ذلك ألحق ضررا كبيرا بمسيرة الاستقلال وتقرير مصير الشعب الارتري.

وكان من الطبيعي في نهاية تلك الفترة ان يبدو بالنسبة إلى من لا يعرف حقيقة مشاعر الشعب الارتري ورغباته، ان هوية الشعب الارتري قد ذابت. وما يؤكد الدور الحاسم لتلك الفترة - الاربعينيات - هو ان علاقة حسن الجوار والتاريخ والثقافة المشتركة التي ترسخت بين ابناء الشعب الارتري منذ الازل، كانت قد وجدت أرضية متينة خلال فترة الاحتلال الايطالي، فترسخت نتيجة لذلك على نحو اكثر صلابة، ومنذ ذلك الوقت ظلت الهوية الارترية تترسخ بوتيرة اندفاعية قوية لم يكن

بمقدور أي قوة أن تعيقها حتى تحقيق الاستقلال.

يحاول هذا الكتاب ان يؤرخ للفترة الحاسمة الممتدة منذ هزيمة الايطاليين ـ 1941 ـ ودخول البريطانيين الى ارتريا وحتى صدور قرار الامم المتحدة بربط ارتريا فيدراليا بأثيوبيا عام 1950.

واختيار تسمية " لن نفترق " [التسمية الاصلية هي " لن ننفصل " وهي مأخوذة من الشعار الذي كانت ترفعه صحيفة وحدة ارتريا. ونظرا الى عدم دقة الترجمة، فإننا اخترنا تسمية الكتاب " لن نفترق " لإعطاء المعنى المقصود بشكل دقيق ـ المترجم] لهذا الكتاب لم تكن اعتباطا، فإرتريا الاربعينيات قد استطاعت ان تحافظ على وحدتها، وبعد ان نجحت في تجاوز الضغوط ومخاطر المؤامرات الدولية التي كانت تحاك لتقسيمها كافة.

صحيح ان الشعب الارتري ليس مسئولا عن قرار الاتحاد الفيدرالي الذي فرضته الامم المتحدة، ولكنه لا ينبغي عدم النظر الى مسألة اختتام تلك المرحلة على نحو غير مرغوب فيه كهزيمة للشعب الارتري، وذلك لأن النضال الذي خاضه الشعب الارتري من اجل الحفاظ على وحدته والنصر الذي حققه في هذا المجال، يعد نصرا اكبر من تلك " الهزيمة ". لقد كانت مسالة الوحدة هذه هي الاهم بالنسبة الى مستقبل وجود الشعب والوطن الارتري، وليس قرار الفيدرالية الذي كان نتيجة للمؤامرات والظلم."